

«مدارات غربية» تحاور المفكر الفرنسي برونو إتيان

الإسلام حاضر فينا وزمن الأحادية الدينية انتهى!

سعيينا في هذا الحوار مع المفكر والمؤرخ الفرنسي برونو إتيان (Bruno Etienne) إلى استكشاف طائفة من إشكاليات الحضور التاريخي للإسلام في فرنسا. جاء الحوار كثيفاً ومقتضباً. ولسوف يلاحظ القارئ من خلال أجوبة السيد إتيان على أسئلتنا أنها جاءت في ما يشبه الأطروحات المرسلة على أجنحة البرق. مع ذلك فقد وجدنا لدى محدثنا الكثير مما يستأهل المسائلة والنقد والتأمل. لقد رأى إلى الإسلام من موقع فيلسوف الدين، أي بوصفه ظاهرة تاريخية - أنثروبولوجية، في حين سيرى إلى المسلمين في بلاده بوصفهم حقيقة واقعية لا مناص من التعامل معهم على أساس التعددية والإقرار بواقع أن زمن الأحادية الدينية انتهى إلى غير ما رجعة..

م. غ

هنا وقائع الحوار:

مدارات غربية: قلت منذ حوالي سبعة عشر عاماً أنه لا يمكن «مقاربة الإسلام من دون أن يكون حاضراً في الذهن كل الكم المتراكم من المعلومات التي تشكل ذاكرة مجتمع مثل فرنسا: الحملات الصليبية، حرب الجزائر، وجود المهاجرين الكثيف... لأن الخيال الغربي - كما تقول - بني لذاته عدائية دراماتيكية مضادة للإسلام». سيد إتيان، أين نحن الآن من هذه العدائية الدراماتيكية؟ كيف تعيد موضوعة هذه الطروحات في الـ «هنا الآن»؟

ب. إتيان: إنَّ العداء، وخصوصاً عدم التفهّم، يظان قوين. ولكن المستغرب أنه في فرنسا لم تكن نتائج 11 أيلول (سبتمبر) سلبية بالقدر الذي كان ممكناً أن نخشاه. لقد اعتاد الفرنسيون على الوجود الإسلامي في فرنسا، ومنذ قضية الرهائن بات يعتبر مثل هذا الوجود كما لو أنه وجود «فرنسي». وإذن فقد حصل تقدم كبير على هذا الصعيد. كما أن التاريخ القديم (حرب الجزائر) قد ولى، إذ أن الشباب لم يعودوا يذكرون هذه المأساة. يبقى أن العنف الإرهابي ينتج دائماً الانفعال، وهذا ضارٌّ بالقضية العربية والإسلامية. أما الذي يصدّم بعض الفرنسيين فهو نمو العدائية المناهضة للغرب عند بعض المسلمين الذين أعادوا بدورهم استخدام موضوعة «الصليبيين»، كما أن هناك لبساً وخطاً بين الغرب، والولايات المتحدة، وإسرائيل، واليهود، والصهيونيين، بين العلمانية الفرنسية. لذا كان من المستحسن جداً أن يقوم المبعوثون من المجلس الفرنسي الإسلامي (CFCM) بتوضيح بعض المواقف أمام مسلمي الشرق الأوسط.

حاوره في باريس:

د. محمد نعمة

تعريب: د. جورجيت حداد

مدارات غربية: لقد صرّحت عن فكرة جميلة مفادها أنه «من غير المعقول بالنسبة للغربي أن يتحاور مع لغز العالم من دون أن يحاول فهمه. بينما بالنسبة للشرقي ليس هناك من لغز طالما أنه يعيش داخل العالم. هل يمكن القول أن أحد أسباب المساوية الراهنة بين الغرب والشرق تتأتى بالتحديد من هذه العقلانية الحديثة لنظام الإدراك الغربي، حيث كل شيء يجب أن يكون عقلانياً، أو موضوعاً تتم السيطرة عليه بالعقلانية، وتغدو بالتالي كل ظاهرة لاعقلانية، ووصفية وخيالية، بحكم طبيعتها إنهاكاً؟

ب. إتيان: كنت هنا أشير إلى الشرق الأقصى. ذلك أن العرب بالنسبة لي، هم غربيون، وبنوع أكثر تخصيصاً «المغاربة» منهم. في الواقع إن الغرب بالنسبة لي هو الكتاب المقدس مضافاً إليه الفلسفة اليونانية، بالمعنى نفسه فإن الإسلام، هو الكتاب المقدس مضافاً إليه اليونان وإعادة تفسير الوحي التوحيدي ومن دون فوارق كبيرة مع الديانتين السابقتين باستثناء ألوهية المسيح. فقد قلت ذلك بالنسبة للشرق الذي يبدأ في الهند وخصوصاً بالنسبة لليابان والصين إذن بالنسبة للبوذية! يجب إذن الأ نقيم تعارضاً بين عقل وعقل ولا بين إسلام وغرب بل بين غرب وغرب وإسلام وإسلام. هناك عدة تصورات لأوروبا. وهناك تنافس بين بعض المسلمين حول الإجابة عن سؤال ما هو الإسلام. بل يمكن القول إنه يوجد «فتنة» حول هذه النقطة. لذا يجب إعادة فتح أبواب الاجتهاد والاستعانة من أجل ذلك بفروع العلوم الاجتماعية كالألسنيات وإعادة قراءة النصوص التأسيسية على ضوء ما يسميه أركون نقد العقل الإسلامي: هذا العمل يجري حالياً هنا وهناك: رشيد بن زين، يوسف صديق، الخ... فضلاً عما أشرنا إليه يمكننا المقارنة بين ابن عربي ومار يوحنا الصليب (Jean della Cruz) ومقارنة الأمير عبد القادر وابن ميمون مع (المعلم) إيكهارت.

أما اللأعقلاني فلا يتحدد إلا بنسبته إلى التعريف المعطى للعقلانية. ولكن هذه العقلانية هي نفسها في الديانات التوحيدية الثلاث: العالم ممكنة معرفته بوصفه

❖ إن الغرب بالنسبة لي هو الكتاب المقدس مضافاً إليه الفلسفة اليونانية، بالمعنى نفسه فإن الإسلام، هو الكتاب المقدس مضافاً إليه اليونان وإعادة تفسير الوحي التوحيدي ومن دون فوارق كبيرة مع الديانتين السابقتين باستثناء ألوهية المسيح.

سيرة ذاتية

برونو إتيان (Bruno Etienne)

- خبير في قضايا الإسلام

- أستاذ في معهد العلوم السياسية

في جامعة إكس أون بروفنس Brovence - en - Ex

- مدير «المرصد الديني» في فرنسا.

- له عدة مؤلفات في التاريخ والفكر الإسلامي نذكر منها:

_ L'Isлам Medical, Paris, Hachette, 1987

_ La France et l'Isлам, Paris, Hachette, 1989

_ Une Cremade enthrouverte, Paris, L'Aube 2000

_ Le temps du pluriel, Paris, L'Aube 2001

_ Une voie pour l'occident, Paris, Dersry, 2001

رياضيات. ولكن العالم غير ممكنة معرفته من جهة كونه إرادة الخالق. فنحن نعيش منذ ثلاثة آلاف سنة في هذا الإحراج، وهو تناقض قد يجعل منا مصابين بالفصام. فهو الكل الآخر (Le tout Autre) والعالم حقيقي بينهما. أما بالنسبة للشرقيين البوذيين، فإن العالم ليس سوى وهم.

مدارات غربية: يكشف لنا الجدل القانوني حول الحجاب الإسلامي وجود إرادات متعددة تحاول أن تجعل من بناءات الأحكام القضائية (الفقهية) بنية العقيدة الإسلامية نفسها. هل تعتقد ان فرنسا ستستفيد على المدى البعيد من هذا الإختزال الظاهري الراهن؟ كيف تستطيع العلمانية حماية وتعزيز الحرية بتشجيعها هذا الإختزال للأمر الديني؟

ب. إتيان: ولكن المأساة هي أن المسلمين أنفسهم ساهموا في هذا اللبس، فمواقف الفاعلين المختلفين المسلمين كانت شديدة التناقض لمعرفة ما إذا كان لبس الحجاب هو إلزام أم توصية. فحتى طارق رمضان نادى بترك حرية التقدير لكل شخص. والموقف الحالي لإتحاد المنظمات الإسلامية (UOIF) الفرنسية القائل إن الموضوع يمكن مناقشته ضمن إطار الجمهورية. لقد تغير اتجاه العلمانية عما كان عليه في بداية القرن العشرين: فمن معركتها ضد الكنيسة الكاثوليكية الواحدة تحولت إلى مفاوضات على كل الصعد، ليس فقط بسبب الوجود الإسلامي بل خصوصاً بسبب كون فرنسا قد أصبحت تعددية ثقافية (الباسكيون، وسكان البروتانية، والكلوركيون) وإثنيًا (عجر، فوموريون) ودينياً (يهود سافارديم وبوذيون ومسلمون). بالإضافة إلى ذلك يقع هذا في إطار أوروبي لا يريد أن تكون عليه الأمور كما هو عليه الأمر في الحالة الفرنسية: ولكن يحدث أكثر فأكثر تألف لأنواع العبادات والطوائف ومن ضمنها مشكلة «البدع». والإسلام ليس سوى أحد عناصر هذه التغيرات.

إن علمانية الجمهورية والدولة لا يهملها أن تحد من الديني، بل تريد أن يكون أمام السلطات محاورين صالحين كفوئين وشرعيين. ولكن كل الديانات تتداخل أكثر فأكثر في المجال العام: إنه تغير حقيقي في المنظور بالنسبة لدولة علمانية وهو أيضاً طريق الحل رغم الأزمات الدولية.

علمانية سلضية

مدارات غربية: ألا تعتبر أنه من وجهة نظر قانونية أن فرض أو منع الحجاب الإسلامي يلتقيان في أنهما يثبتان بطريقة غير مباشرة دونية المرأة وعدم المساواة بين الجنسين؟ وبالتالي أفلا تقترب العلمانية على الطريقة الفرنسية رمزياً وبصورة لاواعية من الحركات الأصولية التي تجعل من الحجاب ذريعة أيديولوجية لكفاحاتها؟

ب. إتيان: بالنسبة لما يعنيني أعتقد أن عدم المساواة بين الجنسين مسألة ثقافية أنثروبولوجية وأيضاً مسألة إجتماعية اقتصادية في الوقت نفسه: في فترات القلة

❖ إن علمانية الجمهورية والدولة لا يهملها أن تحد من الديني، بل تريد أن يكون أمام السلطات محاورين صالحين كفوئين وشرعيين.

تُصرف النساء إلى منازلهن: لقد احتاجت الرأسمالية إلى اليد العاملة النسائية بعد الحرب العالمية الأولى 1914 ثم إلى اليد العاملة لمهاجرة، أما اليوم فلم تعد بحاجة إلى كليتهما. والمرأة اليابانية التي هي ليست مسيحية ولا مسلمة، تبدو في وضع أفضح بكثير على هذا الصعيد. أعتقد أنه في كل مجتمع هناك ميزان قوى هدفه الإنجاب وتصور لمفهوم العائلة وبالتالي لدور المرأة، حيث الحجاب ليس سوى التعبير الثقافي عنه. وهناك بالفعل اليوم بعض السياسيين الذين يتمنون ألا تأخذ النساء عمل الرجال، وبإمكاننا أن نشهد ارتباطات معاكسة للطبيعة! إلا أن البعد الظاهري الديني يخفي غالباً تصوراً إيديولوجياً للمجتمع: هذا ما نراه حول العائلة بالطبع وبالتالي حول الارتباط الحر بين الجنس الواحد أو بين الجنسين كاليأس PACS والموت الرحيم، ومنع الحمل ألخ..

مدارات غربية: ما هو شعوركم حيال إنشاء مجلس للدين الإسلامي في فرنسا السنة الفائتة، لاسيما لجهة صفته التمثيلية وشرعيته، وإمكانية رسوخه على الصعيد الوطني كبنية طائفية ضمن حيز علماني وفرداني، وكذلك على الصعيد الأوروبي كمنظمة فرنسية مميزة في مجال متنوع وغير متجانس؟

ب. إتيان: لقد كنت دائماً أفكر ومنذ 20 سنة بضرورة أن يمثل مسلمو فرنسا تجاه السلطات العامة في هيئة معينة على نسق المجمع الديني، أو الإتحاد إلخ.. لذا أنا سعيد لأن هذا قد حصل. ولكنني متحفظ حول أنماط الانتخابات وخصوصاً تدخل الجزائر والمغرب وتركيا في إدارة شؤون الدين الإسلامي الفرنسي! فجامع باريس هو مؤسسة عامة فرنسية! سوف يتجدد المجلس الإسلامي (CFCM) بعد بضعة أشهر وأمل أن يتمكن المسلمون من الانتخاب من دون أن يكون نصف المجلس معيناً من قبل الوزارة بالاتفاق مع السفارات: لا يمكن لأية دولة ذات سيادة أن تقبل بتدخل من هذا النوع. يضاف إلى ذلك أن هذا المجلس يمكن أن يكون له كسواه من الديانات الأخرى علاقات عضوية وأخوية مع فرقائه الأوروبيين أو مسلمي الأمة، خصوصاً أن قانون 1905 لا ينص على براءة اعتماد لرجال الدين المستفيدين جداً من ذلك. إن المساحة الدينية الأوروبية هي تعددية وليبرالية معاً في إدارة الاختلاف. والحرية الدينية تبدو لي مصانة أكثر من أي مكان آخر! فالمواثيق الأساسية لأوروبا واضحة جداً بهذا الخصوص ومن ضمنها شيء لا يعجب الكثير من الأصوليين: الحق في أن يغيّر الإنسان دينه! (المادة 9 من الميثاق الأوروبي).

مدارات غربية: كيف يمكنكم تفسير إنشاء هذا المجلس CFCM من قبل نظام إيديولوجي يحرص على الفصل بين الدائرتي الديني والسياسي؟

ب. إتيان: إن الدولة لا تفصل بين الديني والسياسي! بل بين الدائرة الخاصة والدائرة العامة. إن الديني والسياسي كلاهما من نطاق الإيمان المشترك. إذ بين إنتاج المعنى المتعالي (الديني) والمتلازم (السياسي) تقوم تكاملية، ويقوم تقاسم في العمل

❖ الحرية الدينية تبدو لي مصانة أكثر من أي مكان آخر! فالمواثيق الأساسية لأوروبا واضحة جداً بهذا الخصوص ومن ضمنها شيء لا يعجب الكثير من الأصوليين: الحق في أن يغيّر الإنسان دينه! (المادة 9 من الميثاق الأوروبي).

على إدارة المعنى. إنني أعجب دائماً من هذا اللبس الذي يحصل أيضاً في البلدان العربية- المسلمة حيث برهن التاريخ هناك أيضاً أن السياسي كانت له دائماً الغلبة على الديني. فعلماء الدين كانوا دائماً مراقبين من قبل الدولة (مع بعض الفوارق مع إيران في الثمانينيات والعربية السعودية حيث التحالف بين النموذجين معقد ولكنه على النموذج «الخدوني»! ومن يعارض هذه الصيغة يمضي عمره في السجن كإبن تيمية!

مدارات غربية: هل يمكن أن يكون وجود «إسلام فوقى» هو أمراً مؤتياً للجميع خصوصاً إذا كان قادراً على الاستقلالية ويمكك الوسائل لضرورية لإيصال وتوجيه «إسلام تحتي» شديد الدينامية. وفي الحالة المعاكسة ألم تقم الجمهورية تحت وطأة الإلحاحية والخوف «باستنساخ» نظام الرقابة الحالي الديني القائم في «أرض الإسلام» ومعه كل إعاقاته وعدم جدواه. برأيكم، ألا تفتقد سياسة الجمهورية تجاه الديانة الثانية في فرنسا إلى بعض المقروئية (الوضوح) بسبب الإزدواجية بين الثقة والريبة، وبين الحوار والقطيعة، وبين الأمان والخوف؟

ب. إتيان: لا أعتقد أن سياسة الجمهورية تفتقد إلى المقروئية (الوضوح) إنها تماماً تلك التي تحدثت عنها وتلك التي أدافع عنها: إن السلطة السياسية تريد أن تراقب الديني وهذا صحيح بالنسبة للطوائف الأخرى التي هي مرغمة أيضاً على التفاوض معهم حول: الغذاء - الشباط (عند اليهود) - التعليم الديني - النمط الدراسي، الإجهاض، إلخ... ولكنه عمل لا يستنسخ نموذج البلدان الأصلية، وهذا حاصل في كل العالم وهو تقليد في طريقة الممارسة الفرنسية منذ قرون:

Curjus regio ejus religio

نجدها أينما كان: تابع الجدالات في المجلس الأعلى الإسرائيلي حول هذه النقطة:

Dina dina Khouta dina

أي: الناس على دين ملوكهم: إنها القاعدة الكونية. المشكلة اليوم أن كل الناس تحيد عن الموضوع، الجميع يسافر، والمجتمعات أصبحت تعددية وزمن الأحادية قد انتهى!